فرنتس شـــوبرت

للأستاذ محمد كامل حجاج

بقية ما نشر في العدد الماضي

وقد أثر فيه موت بيتهوفن تأثيراً عميقاً ، وما فتئ يظهر عليه البشر والحنان ، ومن هذا الوقت ظهرت قطعة المرنجلة Impromptus والأوقات الموسيقية Moments musicaux . ولكنه كانت تزيد حالته سوءاً وبؤساً من يوم لآخر ، فكان يشرب لينسى همومه ؛ ثم كتب الأربعة عشر لحناً التي يقال انهم وجدوها في أوراق بيتهوفن ، وقد جمعت باسم « غناء البجع » أي الغناء الأخير، إذ يقولون ان هذا الطير يغني قبل موته . وفي ٢٦ مارس سنة ١٨٢٨ أقام حفلة موسيقية من مؤلفاته لأول مرة ، فكان الإقبال عظيما جداً والدخل وافراً . ولكن صحته كانت تتدهور من وقت لآخر حتى لزم الفراش في ١١ نوفمبر ثم فاضت روحه المتألقة في التاسع عشر منه سنة ١٨٢٨ وأصدقاؤه يحفون به، ودفن بجانب بيتهوفن . وفي سنة ١٨٨٨ نقل الاثنان إلى المقبرة المركزية بفينا بجانب موزار وجلوك

وكانت هيئة شوبرت كألماني شريف ثقيل الحركة قليلاً، وكان ساذجاً مثل هيدن يلهو بأتفه الأشياء . له ولع شديد باجتماعات الأصدقاء التي تدار فيها كؤوس الجعة بكميات وافرة . يضع على عينيه نظارة. شعره جعد، كبير الوجه، غليظ الشفتين، ربعة ، كبير البطن. وكان متأجج الشاعرية ثابتاً مبدعاً تقي القلب ملك الأغاني كما عبرت عنه مدام De Staël . ويظهر ان الحب لم يعبث بفؤاده إلا قليلا جداً . ومن صفاته الم ة انه كان ذا طبيعة سليمة كريمة مرهفة الحس لا تكتم في باطنها شيئاً . وقد قالت أخته كاتي : « كان طيب القلب جداً يأنف من الحسد ، وكان لا يكتم سروره وطربه عند سماع الموسيقى الراقية ، ويمسك بيديه رأسه ليتفرغ للاصغاء . وكان اعجابه بموزار وبيتهوفن لا حد له . وقد جرى ذكر بيتهوفن على لسانه وهو يلفظ النفس الأخير، وهذا ما أولوه من أنه أراد أن يدفن بجانبه

كان شوبرت شاعر النفس، وقد قال عنه ليزت : «انه أكبر شعراء الموسيقى على الاطلاق » وكان اشهى مجتمع له هذا النادي الأخوي الصغير المؤثث بأفقر الأثاث ؛ وكان يرنجل فيه ألحانه الخالدة . وكانوا يسمون هذه الجلسات الرائعة «شوبرتياد» وكان النبوغ فيها ينير الشباب والصداقة . وقد قال ماير هوفر « إنني لا أنسى أبداً الساعات الهنيئة التي قضيناها في هذا المسكن الحقير ولم يكن عندنا غير بيانو ردىء ومكتبة فقيرة وأثاث حقير ونور ضئيل ؛ وفضلا عن ذلك فاني قضيت هناك أسعد أوقات حياتي»: وجاء في خطاب لصديقه الحميم شوبر Schober أرسله اليه في ٢ نوفمبر سنة ١٨٢١ : « وددت لو كنت معنا لتنظر كيف تولد هذه الألحان الشجية وهي تموج بالفكر . وغرفتنا في Saint Pollen كانت محبوبة جداً ، وبها سريران وصفة ومدفأ حار وبيانو؛ وكنا نأتي بالجعة ليلا وندخن ونتسامر فيما مر في النهار ونطالع ؛ وحينما يحضر سوفي ونيفل نشرع في الغناء

كانت هذه الاجتماعات الفقيرة البريئة التي تجمع أصدقاء شوبرت وهم يمرحون ويتسامرون ويغنون مؤلفاته التي كان يرنجلها تعد من أسعد أوقاته وأعظم عزاء لبؤسه وشقائه وسط قومه الذين لا يفهمون موسيقاه الساحرة ولا يقدرونها

إننا نستطيع أن نميز في مؤلفات شوبرث عدة مجموعات غنية قيمة غير متساوية في القوة

أولا : موسيقى البيانو — ثانيا : التريو والكواتوور والكنتيت . ثالثا : السانفوني — رابعا : المؤلفات المسرحية . خامسا : أغاني الليدر . سادسا : الموسيقى الدينية .

إن موسيقاه للبيانو لجديرة بأن توضع في صف واحد مع شومان وشوبان وستيفن هيلر وهي تشمل السوناتات والفانتيزي و Impronptus أي المرنجله . وقد كتب عشر سوناتات أشهرها

الست الأخيرة . ولا نزعم أنه جدد فى الشكل شيئاً ولكنه بث فيها صفاته العادية من الحنان واسترساله فى التأملات والخيالات الرقيقة الباطفية؛ وأهم ما كتب فى السونات الخامسة . وهى من مقام لامينور. وأما القطع المسماة Impromptus فهى تستحق ما نالته من الشهرة والذيوع ، وفيها من المهارة الفنية السهلة مالا يوجد عند من سبقوه من كتاب قطع البيانو . ولكن بعض مواضيع منها يؤخذ عليها أنها عادية ، وهذا يرجع إلى سرعة الكتابة والتلحين ؛ ولكن بعض هذه الهنات لا تحجب فتنتها الساحرة . إن نظرنا إليها وجدناها كالماء الصافى العميق نشاهد فى قراره كل الخصال الشريفة المحبوبة التى تختلج فى روح شوبرت وهذا النوع يتفاوت فى الأهمية والقيمة

أما موسيقاه الخاصة بالآلات الوتريه فانه أظهر فى بعضها نبوغا مدهشا، ولو طال أجله لارتفع إلى ذروة الفن كبيتهوفن. وقد ابتدأ بكتب الكواتوور وهو فى الرابعة عشرة وله منها عشرون؛ وكتب كثيرا من الترپو والكنتيت يعد بعضها من خير ما جادت به القرائح الجبارة ، ولاسيما ما كتبه منها سنة ١٨٢٤ وسنة ١٨٢٦ وهما الكواتوور en La mineur والذى من مقام سي مينور

ولقد ترك لنا شوبرت ثمانية سانفونيات الأولى كتبها وهو فى السادسة عشرة وأهمها اثنتان التى من مقام ut اى دو سنة ١٨٢٨ أو السنة التى مات فيها وقد هجرت فى أول الأمر لصعوبة توقيعها ثم عثر عليها شومان فى أوراق فرديناند شوبرت وكان من المعجبين به . وقد أغدق عليها شومان من أنواع التقريظ ما شاءت له حماسته وقال انها تكاد توضع فى صف سانفونى بيتهوفن

الموسيقى المسرحية

كتب شوبرت ثمانية عشر مؤلفا للمسرح منها اثنان مفقودان ، وواحد لم يتم ، وأربعة منها أوپيريت ، واثنان موسيق للمسرح وفيها كورس وفاتحات وانتراكت وميلودرام ورقص وبقى بعد ذلك خمس أوپيرات بالمعنى الصحيح ، أهمها Alfonso et Estrella سنة ١٨٢٢ وفيرا براس سنة ١٨٢٣ وكل منهما ذات ثلاثة فصول . يتساءل الناس لِمَ لَمْ ينجح شيء من مؤلفات شوبرت المسرحية ؟ لأنه لم يوهب الذوق المسرحى ، وقد دهش منه ليزت إذ قال : « إن الذوق الأدبى الذى برهن عليه منذ صغره فى اختياره لمتون الليدر قد فارقه وخانه فى متون الأوبيرات إذ كان يظهر له الغث والسخيف قبيحا حسنا ، وكان يكتب له متون أوبيراته أصدقاؤه الذين لم يضربوا بسهم وافر فى البيان ولهذه الاعتبارات لم تعش موسيقاه المسرحية

لقد نبغ شوبرت فى موسيقى الغناء حتى صاغها بمعنى عميق من التعبير الصوتى؛ وقد كتب نحو خمسين نشيداً (كور) لأصوات الرجال وعشرين لأصوات مختلفة ، ولكنه قبل كل شيء صاحب الصولجان فى الليدر التى سبكها فى نحو مائة شكل من التعبير إذ تناول جميع أنواع الشعر فلحنها على جميع أنواع الأوزان إذ عالج كل ماوقع فى يده من الشعر الوجدانى والقصصى والدرام ؛ ورغماً من مرونة عبقريته وسهولتها كان يسود على موسيقاه تعبيره الشخصى إذ كان الرجل الحساس فى القرن الثامن عشر

إن ليدر شوبرت تمثل كل صفات الابداع والابتكار التى أوجدتها الطبيعة فلا تجد فيها شيئاً مصطنعاً لأنها ليست نتيجة الثقافة ، ولم تتفتح فى حدائق المدنية بل تفجرت كالسيل فى محراب عميق بطبيعة لم تنتهك حرمتها ؛ وترى موج الالحان يسيل منها كمنبع لا ينضب ماؤه . تتسرب موسيقاه إلى أعماق النفس فتهيمن عليها ويشعر الانسان حينما ينصت إليها بتأثير لا يستطيع أن يثبت أمامه كما نفتتن بصباح جميل عليل النسيم من أيام الربيع وقد كسا الطبيعة بأبهى حلله وعطر الأرجاء بعبقه الشذى. وقد تناول فى تلحينه ليدر جوت وشيلير وهين وولترسكوت وأوسيان وغيرهم من الشعراء

الموسيقى الدينية

يذكر الناس أن شوبرت عرفنا بحالته النفسية فى خطابه الذي كتبه فى يولية سنة ١٨٢٥ عند ما لحن نشيد المذراء Ave Maria إذ قال : « لا يمكننى أن أتناول موضوعاً دينياً ما لم أشعر بالتقوى حينما تتملكنى. ولم يكفه أنه اقتعد أرفع مكانة فى الليدر والسانفونى وموسيقى الغرف بل أراد أن يثبت للجمهور مكانة لا تقل عنها رفعة فى الموسيقى الدينية

وخلاصة القول أن شوبرت يعد من أكبر الشخصيات التى يشار إليها بالبنان فى عالم الموسيقى . وقد اختطفته المنية وهو فى نضرة شبابه أى فى الواحدة والثلاثين ؛ ولو عاش لجلس مع كبار النوابغ فى صف واحد . وكأنه أحس بقصر عمره فطفق يسرع فى إنتاجه بشكل أدهش الناس كما فصلنا ذلك فى موضعه . وكان يتعزى فى بؤسه وسوء حظه وسقمه بأصدقاء حميمين يحيون معه هذه الحفلات الفنية البريئة حتى ينسوه آلامه . وهنالك كان